الطب في البلاد من مئة سنة

بقلم الحكيم امين الجُمَيِّل

٢

ومع طمعي بلطفكم واصغائكم ، لا اجيز استيعاب درس اوبئة أخر كالخناق ، والتيفية ، والسلّ ، والتيفوس . فكلها كانت في قديم الايام . وفي أثنا . درسي « الطب في الكتاب المقدس » ، عثرت على ذكر التيفوس وحده نحو عشر مرات : منها في دانيال وحزقيال والملوك الاول : نقرأ ثمة ان الباري تعالى ضربهم وتهدّدهم بالمجاعة والسيف والوبا . . وما التيفوس الا ربيب المجاعات الدائم ورفيق الحروب الثابت ، على ما جرى لشعبنا القليل الحظ في الحرب الاخيرة .

اما كيف زالت تلك الاوبئة او كادت فمرجع الفضل فيه للعلم ورجاله ؛ وابوهم وشيخهم ومثالهم پاستور « من زوّج العلم العمل » حسب عبارة رثاهُ بها ، يوم وفاته ، وزير المعارف آنذاك ، ويمون بوانكاره نفسه .

پاستور كشف لنا العدوّ المستتر — وليس أهول من عدو مستتر ! — مزّق الحُجُب التي تخفّي وراءها الميكروب المتناهي صغرًا وأذى وذيوعاً ، فشاهدناه وعرفنا كيف وأين نجتنبه .

لم يكن للبشرية وسيلةٌ قبل پاستور الا ما قاله بعضهم : إذا حلّ الوبا بأرض ، فاهرب سريعاً ، وأقم بعيدًا ، وعُد بطيئاً .

هي القاعدة التي تمشّى عليها الشهابيُّ نفسهُ مع جرجس باز لمّا فرّ عام ١٨٠٠ الى عين تراز ، وبشير اللمعي اذ اعتزل في رأس الجبل في قمة دير مار شعيا . وغالباً لم يكن ينفع الهرب ، ولا وضع سن توم في الأنف ولا سدّه ، ولا خرافة او « طُومة » من الالوف المألوفة عندنا .

وهذه الشدّةُ في الأوبئة ، وذلك الفتك الهائل ، لم يزالا في الامكنة التي لم يسطع فيها نور العلم ، فلم تعمل بما علّمناهُ الصحيون المعاصرون. فهولاء قد أوضحوا لنا أنَّ الطاعون لا ينتقل الّا بالجرذان ، وبالأحرى ببراغيث الجرذان. ففهمنا لماذا كان هذا الوباء يسرح ويمرح في بلاد الحبوب والقطاني ، ولماذا اختار هنا معصرة الحلاوة ، والخان الصيفي ، ومطحنة انطلياس.

وقد جلوا لنا أنَّ الكوليرا ليست هواء أصفر او ازرق ، بل ماء أصفر اي ملطخاً بجراثيم المرض ؛ وكذلك الرُّحار والتيفية. فصرنا اذا عملت الحكومة وعملنا على صيانة المياه وطهارتها سَلمنا من ذلك . وأوكدُ برهان مناعة بيروت على الكوليرا من عام ١٨٧٥ الذي جاءت فيه مياه نهر الكلب ، مرشحة في الضبيّة ، واردةً ضمن قنواتٍ مُحكمةٍ مُقفلة ؛ وكيف تابع انتيابه طرابلس والشام وحمص الخ.

وفضلًا على ما سبق ، جاء التقدم الطبي او الصحي مُطرِدًا في العلاج والمأكل والملبس والمسكن ، وفي رسوخ عادات النظافة : والنظافة امُّ الصحة وابوها. أتصدّقون أنَّ من اكبر العوامل على زوال الطاعون او نقصه كان نقص الزحام والمُلازة في البيوت ، وتوسيع الشوارع وفتحها للشمس المحيية ، ونظافة البيوت والملابس. كما ان البناء الجديد بالملاط والكلس والبيتون لم يبقِ نقرًا او فراغات يعشش فيها الجرذان.

ورأسُ الوقاية العصريّة انما هو بدون جدال : التطعيم ، سواء كان للهواء الأصفر ، او التيفية ، او أخواتها ، او الطاعون ، ولاسيما للجدري . وفي كل الموادّ التاريخية التي اتيتكم بها عن القرن الماضي لم اجد اثرًا أجدر بسماعكم من دخول المطعوم الجدري اي البقري.. كما ذكر الامير حيدر في تاريخه ، قال ما ملخصه:

في سنة ١٨١٠ تكاثر الجدريّ في جميع البلدان والمدن حتى لم يكن مكانٌ يخلو منه. وقد جيء بالمطعوم الافرنجي على يد قنصل النمسا : بطرس لورلّا . فاستعمله الامير بشير لبعض أتباعه. وكان يومئذٍ في قرية برجا اناسٌ بهم هذا المرض فأرسلهم الى هناك ، وكانوا ممن يعتقدون بالقضاء والقدر ، ودخلوا

بين اولئك المجدورين وخالطوهم بجرأة وعادوا سالمين . فوثق الامير بذلك واستعمله لنفسه ولأهل بيته ، وشاع ذلك في البلاد فاستعمله كثيرون . ولما حدث هذا المرض بتلك السنة وَجدوا أنّ الذين قد تطعموا سلموا ، فصحت عزيمة الناس واستعملوه كباراً وصغاراً . . . وعلينا ان نجهر أنها ثقة لم يزدها السنون الّا رسوخاً وشيوعاً .

أوَما هذه حسنةٌ من حسنات الامير قضى علينا التاريخ والوطن بتسطيرها لهُ بمداد الذهب ؟ .

الجراحة

ليس لنا فيها كلامٌ طويل ، لانه قبل ليستر الانكليزي ، اي قبل التطهير ، طبقاً للتعاليم البستورية ، على ما جهر به ليستر نفسه ، لم يكن جراحة حقيقية . ولم تخطر الجراحة ببال الا في بعض الامور البسيطة ، ولطوارئ اضطرارية عادية . فأدنى جرحٍ سابقاً كان يُمسي مراراً مجلبةً للتعفنات والحمى والتقيّح ، وقد يؤدي الى الموت . وان توفّق الطبيب للشفاء فقد لا يبلغه الا بعد اهوال ومدة من الزمان . واما الآن ، فباغلاء الآلات ومواد الضماد وبتطهير اليدين ومحل العمل بصبغة اليود ، يخيط جرّاحنا القلب ، ويبرد الدماغ ، ويشق البطن ، ويستأصل الطحال ، وينقل الغدد والاعضاء . ويتم الشفاء بسبعة ايام او عشرة ، بدون ألم بقوة التخدير (البنج) ، وبدون خطر بفضل التطهير .

اذا اشكل على معاصرينا أمرٌ في الجسم ، فتح جرّاحهم المكان وعرَفَ وعمل عن هدىً وصواب . وهاكم مثل الزائدة الدودية : كثيرون نعرفهم ماتوا بريح السدد او القولنج او « التهاب البريتون » ، ولو كانوا اليوم لعرف اسرهم في أصله اي التهاب الزائدة الدودية ، ولعولجوا وشفوا باستئصال تلك التي « اسمها عليها » : الزائدة .

ولا حاجة ان اذكركم بالكورنتينات التي كان يُحجر فيها على المسافرين حتى الى اربعين يوماً كما يدلُّ الاسم . ويغلب انها لم تمنع داء ، ولا أوقفت وباء ، وكيف استبدلت الان بعزلةٍ فردية وطرقٍ تطهيرية .

الادوية والصيدلة

كان الطب اوانئذٍ قاصراً على امور بسيطة ؛ أو انَّ معرفته كانت تبقى عقيمة الفائدة. فبعد ان يجسّ الحكيم النبض ، ويكشف على اللسان ، ويسمع بعض التفاصيل ، وينظر الى السحنة ، يصف العلاج . وما تلك المعالجة إلا ما شخّصه بظرفه ولطفه موليار الشهير استاذ المضحكين والمازلين ، قال في :
Le Malade imaginaire :

Clysterium donare,

Postea seignare,

Ensuitta purgare.

حقنة ، ففصد ، فسهل . وعندنا قد كان زائداً على ذلك : الكيّ ، وهو آخر الطب . اما اشهر المساهل فكانت : الراوند ، والسنمكة ، والخيار شمبر ، والهندي شعيري ، وزيت الخروع . ومن الوصفات : ماء الشعير ، وملح البارود ، والقنطاريون او ورق الزيتون ، قبل انتشار الكينين . وفائدة هذه المعالجة تقوم على الثقة : والثقة في التطبيب كلها فائدة . الايمان في الطب ، كما في الدين ، ينقل الجبال . والمعالج كان هو نفسه يأتي بالدواء إن لم يأخذه من عند العطار . واول من زاول الصيدلة في عاصمتنا : السنيور كورلّا ، فأنشأ اجزائية قرب المينا سنة ١٨٢٦ ، لان البلدة القديمة لم تكن تتجاوز الابواب والاسوار المعروفة الى اليوم ، ولا تعدُّ اكثر من ١٥ الف نسمة .

والسيد كورلّا طلياني الاصل ، على افتخار بلدتي بكفيا بأسرته اليوم ، وذلك ما يفسر لكم لفظنا على الطريقة الطليانية : فرمشيا ، وشترات الحديد ، وكربونات السود ، والمانيزيا .

من كانوا اطباء ذلك الزمان

الجواب : فريقٌ من الرهبان ، والشعراء ، والجبراء ، والدجّالين والمغاربة ؛ ولم يكن اصحاب شهادات . وقد بلغ بعضهم شهرةً بعيدة المدى كجبور الطبيب بالزوق ، وعبدالله اليازجي (ابو نصيف) ، وميخائيل سليمان الجلخ من بكفيا

(فيتدين) ، وبني الخوري باهج ، وابي يعقوب تابت ؛ والد جد الوجهاء الخواجات تابت ، وهو اول وآخر من أثرى في الطب. اما وقد ذكرت لكم السنيور كرولّا والسيد ابا يعقوب ، فاسمحوا لي ان افكهكم بقصة صغيرة حصلت لهما ، لعلّي اتوفق الى اظهار الطب دقيقةً بمظهر غير دائم العبوسة او الألم مع مرارة الدواء:

قرأ ابو يعقوب يوماً في بعض المخطوطات او الكتب ، او سمع عن طبيب ما — وهكذا كانوا يتعلمون الطب او يتوارثونه — وصفة راقته ؛ ومن جملة ما ورد فيها من الاجزاء «كلورور السوديوم» ؛ ولم يكن في جواريره او خزانته كلورور السوديوم . فأرسل يطلب ذلك من كرولّا ، فقبض كرولّا ثمن الثمانية الدراهم ريالًا . وتصادف ان العلاج جاء ناجعاً فكرره ابو يعقوب ثم اعاده . وبكل مرة كان يتكلف ريالًا . وفي ساعة ، اذ كان يقرأ ، عثر على ان كلورور السوديوم ليس الا ملح الطعام العادي . فهرول الى كرولّا وعاتبه ، ثم وبخه كيف يبيعه الملح بهذا الثمن ، ووصل به الحنق الى ان شتمهُ بقوله : «انت حرامي !» . فأجاب كرولّا : «انا حرامي وانت حمار ! لانك لا تعرف أن كلورور السوديوم ملحٌ . وما دفعتَه من المال كان حقّ علم !»

ولا ينخدعنّ احد بوصفات او مخطوطات ، او علومات ذلك الزمان ! فهي مقروءة معروفة موجودة بين يدينا ، واختبرت مضامينها فما فيها سوى ما أخذناه منها . والطب والجراحة وعجائبها وقانون الصحة الفعّال كل ذلك من مواليد اواخر القرن الماضي وما مضى من الحالي القرن العشرين.

اما اول طبيب لبناني ذو شهادة قانونية ، بعد دروس أصولية ، فينتسب الى اسرة باز الديرانية التي تذبُ فيها ابدًا ، والحمد لله ، روح الأجداد. وهو الشيخ درويش عبد الاحد باز ، ارسله خاله البطريرك يوسف الخازن الى المدرسة الطبية الحديثة ، بزعبل ، اذ ذاك ، ثم انتقلت الى القصر العيني. ولم يولد الطب العلمي المدرسي الا من يوم ايفاد امير الامراء بشير بعثة من التلاميذ اللبنانيين ليتعلموا الطب بمصر. واليك كيف كان ذلك:

ضاف ابراهيم باشا ، الفاتح المصري ، صديقه وحليفه الامير ؛ واصيب بشير بقولنج شديد الإيلام (وربما كان مغصاً كلوياً وهو مرض كبراء المفرطين في اللحوم

والحياة الجلوسية) فحاروا في الامر ، ولم يكن ساعتئذٍ طبيب جدير بالثقة يتولى مداواته . فشقَّ ذلك على ابرهيم باشا وأشار على الامير بان ينتخب من يدرس الطب بالقصر العيني على حساب والده محمد علي . فأرسلت البعثة الاولى من نخبة شباننا مؤلفة من ابرهيم النجار ، ويوسف الجلخ ، وغالب البعقليني ، ويوسف مرهج لطيف ، وسليم الملوك ؛ وعادت فائزة بالديبلومات عام ١٨٤٢

اما ابرهيم النجار فبعد زيارة للامير في منفاه بالاستانة ، حضر الى بيروت كرئيس اطباء الجيوش. وفتح مدرسة طبية في البيت المحاذي لهذا النادي ومن خريجيه يوسف الزغزغي ، الشهير بإصلاحاته ومآتيه الخالدة في لبنان ، والمرحوم والدي الذي روى لي أنَّ ابراهيم كان اول من عمل هنا عملية الحصاة ؛ واذ لم يكن ذاع استعمال البنج ، كان يربط من يجري له العملية على زوايا طاولة العمل . وترك لنا ابراهيم النجار تآليف قيمة ، ومات في بكفيا بين يدي تلميذه ميتة صالحة على ضد ما أشيع ، أغمضه اليها الخوري جرجس فرج الاول ، مرشد دار الامير حيدر اللمعي. وكان ضريحه في وسط مقبرة مار عبدا . واذكر ، ولداً ، الشطر الاخير من تاريخ وفاته وهو :

« في حضن ابراهيم بات سميُّهُ »

واما يوسف الجلخ فقد عرف ببراعته وكبر فضائله ، ومن ثماره المرحوم الحكيم سليم الجلخ بكره وربيبه .

اما الحكيم ڤان ديك مؤسس مدرسة الطب في الكلية الاميركية عام ١٨٦٥ ، فقد جاء سنة ١٨٤٠ واشتغل اولاً في عبيه خاصة للرسالة والتبشير ، اكثر من اشتغاله في الطبابة.

وبالاختصار ان علم الطب كان ، كعلم الحقوق الى امس ، يتعلم في الكتب وعلى بعض رجال الفن. ولم يكن دبلومات ، ولا مدارس قانونية ، كما كان في اوربة الى العصور الحديثة.